الفصل الثاني : الحكمة من التدرج في التبليغ والتطبيق

تمهيد :

الحكمة من التدرج

١- ترويض النفوس على تقبل أحكام الله وشرائعه وحدوده .

٢- التمهل في استئصال العادات القبيحة المتأصلة في النفوس لا سيما العادات المتوارثة عبر قرون طويلة .

٣- تخفيفًا على الناس وتماشيًا مع الفطرة الكونية والفطرة الإنسانية التي يتطلب التعامل معها التزام التدرج لتغييرها وحسن الارتقاء بها إلى أعلى درجات الإيمان بالله .

٤- أن التدرج يتلاءم مع منهج التغيير بشكل عام ، إذ لا يمكن تغيير أوضاع المجتمعات لتتفق مع الشريعة إلا بأسلوب التدرج التي هي سنة كونية وحكمة إلهية ، فالليل إنما يدخل بالتدرج وكذلك النهار، بل وحتى الأوامر السماوية لم تنزل مرة واحدة ، فالقرآن الكريم نزل منجما عبر ثلاث وعشرين سنة ، بين أمر ونهي وترغيب وترهيب ولو نزل مرة واحدة لنفر الناس وفروا من الدين ، وهذه حكمة الله سبحانه وتعالى .

٥- كذلك من حكم التدرج أن يقارن الناس بما كانوا عليه من باطل وجهل وشرك بالله عز وجل ، وبما أصبحوا عليه من عدل ونور واسلام ، وانهم انتقلوا من الظلمات إلى النور.

ومن أهم الحكم في التدرج تهيئة النفوس للسماع ، وقبول النفوس للحق ، وترسيخ الإسلام في النفوس .

المبحث الأول : تهيئة النفوس للسماع

بالتدرج في الدعوة تتهيأ النفوس للسماع ، فالحجة لا تقوم على المدعوين إلا بالسماع ، ولذا أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بإجارة المستجير من المشركين لأن إجارته تهيئة لنفسه للسماع ، فقال تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة :آية ٦)

فأوجب سبحانه كف القتال عمن أظهر الرغبة في سماع كلام الله . بل جعل الغاية من إجارته إسماعه كلام الله ليكون كلام الله أول ما يقرع سمعه فيقع من نفسه موقع التمكن، وبذلك تقوم عليه الحجة .

وإذا فلا ضير من إعطاء المشركين الفرصة لكي تتهيأ نفوسهم لسماع القرآن ومعرفة هذا الدين ، لعل قلوبهم تتفتح وتتلقى وتستجيب ، فتزكو تلك القلوب ، وتطيب تلك النفوس .

وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك فقد كان يهيئ نفوس المشركين للسماع ، فحينما جاءه عتبة بن ربيعة لمفاوضته صلى الله عليه وسلم هيأ نفسه للسماع أولا بقوله : « قد فرغت يا أبا الوليد ؟ . . " قال : نعم ، فقال : " يابن أخي فاسمع ».

ولا يخفى على أحد ما في هذه الملاطفة والتكنية من تهيئة للنفس للسماع ، وحين أسمعه صلى الله عليه وسلم صدرًا من سورة فصلت إلى قوله :﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت آية :١٣) فقال عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير هذا؟ قال: " لا ". فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ فقال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته. قالوا: هل أجابك؟ قال: نعم. قال: والذي نصبها بنية، ما فهمت شيئا مما قال غير أنه قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت آية :١٣) [1]

ونجد مصعب بن عمير وهو مبعوثه صلى الله عليه وسلم للدعوة ، يبدأ بتهيئة نفوس

---

(١)ذكره الهيثمي في **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، ط١ (٢٠/٦)

مدعويه للسماع ، فحينما جاءه كل من زعيمي بني عبد الأشهل ، أسيد بن حضير[1] وسعد بن معاذ[2] رضي الله عنهما كان يبدؤهما بعرض السماع أولا فيقول : " أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكرهه "[3].

وبهذه الملاطفة والعرض المنصف هيأ نفسيهما للسماع ، فلما سمعا أسلما ، وأسلم أقوامهما وقد كان صلى الله عليه وسلم يهيئ نفوس أصحابه للسماع فقد روى البخاري بإسناده إلى جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حجة الوداع : «استنصت الناس فقال : لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »[4] .

فدل الحديث على أنه صلى الله عليه وسلم استنصت أصحابه قبل أن يعظهم ليهيئ نفوسهم لسماع كلامه ، ثم حفظه ثم العمل به ، ونشره ، وقد ذكر ابن حجر حكمة عظيمة بين فيها التدرج في تلقي العلم ، وأن أوله الاستماع فقال : " قال سفيان الثوري وغيره : أول العلم الاستماع ، ثم الإنصات ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر "[5] .

ومما كان يهيئ به صلى الله عليه وسلم نفوس أصحابه للسماع والفهم أنه عليه الصلاة والسلام كان يبدؤهم بالسؤال أولا ثم يلقي عليهم المسألة ، يدل على ذلك ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر فقال : « يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ " قالوا : يوم حرام ، قال : " فأي بلد هذا ؟ " قالوا : بلد حرام ، قال : " فأي شهر هذا ؟ " قالوا : شهر حرام ، قال : " فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في

---

(١)هو أسيد بْن حضير بْن سماك بْن عتيك بْن امرئ القيس الأنصاري الأوسي الأشهلي، شهد العقبة الثانية، وكان نقيبًا لبني عبد الأشهل، صحابي جليل توفي سنة ٢٠ هـ ودفن في البقيع . أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢٤٠/١)

(٢)سعد بْن معاذ بْن النعمان بْن امرئ القيس الأنصاري الأوسي الأشهلي، صحابي جليل ، شهد بدرا وأحدا والخندق، استشهد سنة ٥ هـ وهو الصحابي الذي اهتز لموته عرش الرحمن. أسد الغابة في معرفة الصحابة (٤٦١/٢)

(٣) ابن هشام ، **السيرة النبوية** ، ط١(٢٨٤/٢).

(٤) أخرجه البخاري في **صحيح البخاري** ، كتاب العلم باب الإنصات للعلماء ، ط١ برقم (١٢١) ١ / ٥٦ .

(٥) ابن حجر ، **فتح الباري شرح صحيح البخاري** ، ط١ (١ / ٢١٧)

شهركم هذا» [1]

فكرر صلى الله عليه وسلم السؤال ثلاث مرات ليكون أبلغ في فهمهم وإقبالهم على كلامه، يشير إلى ذلك ابن حجر رحمه الله نقلا عن القرطبي قوله رحمه الله : سؤاله صلى الله عليه وسلم عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهومهم وليقبلوا عليه بكليتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه ، ولذلك قال بعد هذا : فإن دماءكم . . . إلخ مبالغة في تحريم هذه الأشياء انتهى " [2] .

ويقول الشيخ سليمان ابن عبد الوهاب صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد في شرح هذا الحديث مبينا الحكمة في البدء بالسؤال:"وأخرج السؤال بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس وأبلغ في فهم المتعلم،فإن الإنسان إذا سئل عن مسألة لا يعلمها ثم أخبر بها بعد الامتحان بالسؤال عنها فإن ذلك أوعى لفهمها وحفظها ، وهذا من حسن إرشاده وتعليمه صلى الله عليه وسلم ومراعاته لتهيئة النفوس لاستقبال ما عنده "[3] .

وتأمل موقفه صلى الله عليه وسلم مع ثمامة بن أثال[4] رضي الله عنه ، حيث أبقاه أسيرا في المسجد ثلاثة أيام ، وقد أكرمه صلى الله عليه وسلم غاية الإكرام ثم منّ عليه ، فكان لهذا التعامل أثره في تهيئة نفسه لسماع القرآن ، ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة تعامله مع أصحابه ، فانقلب بغضه للرسول صلى الله عليه وسلم حبًّا في ساعة واحدة [5].

---

(١) أخرجه البخاري في **صحيح البخاري** ، كتاب الحج ، باب الخطبة أيام منى ، ط١ برقم (١٧٣٩) ٢ / ١٧٦

(٢) ابن حجر ، **فتح الباري** ط١ (١ / ٢١٤) .

(٣) سليمان ابن عبدالوهاب ، **تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد** ، ط١ (ص ٦٥).

(٤) ثمامة بْن أثال بْن النعمان بْن مسلمة بْن عبيد بْن ثعلبة بْن يربوع بْن ثعلبة بْن الدؤل بْن حنيفة بْن لجيم وحنيفة أخو عجل ، صحابي جليل ، توفي سنة ٨ هـ أسد الغابة في معرفة الصحابة (١/ ٤٧٧) .

(٥) ابن حجر،**فتح الباري** ط١(٨ / ٤٢١). والحديث رواه البخاري في كتاب الخصومات ، باب التوثق ممن تخشى معرته برقم (٢٤٢٢)

ومما كان يهيئ به صلى الله عليه وسلم النفوس للسماع الترحيب بالقادم والتلطف معه وتأنيسه والثناء عليه كما فعل صلى الله عليه وسلم مع وفد عبد القيس ، حيث أثنى عليهم وأخبر أنهم خير أهل المشرق ، فاستقبلهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وبشرهم بذلك ، ثم بعد وصولهم رحب بهم صلى الله عليه وسلم حيث قال لهم : « مرحبا بالقوم أوبالوفد غير خزايا ولا ندامى [1]».

فدل ذلك على أن الاهتمام بالمدعوين مدخل طبيعي إلى نفوسهم ، وله أثره في تلقي النفوس للحق وقبوله ، وبالتدرج في الدعوة تظهر أهمية مراعاة العوامل النفسية لدى المدعوين ، وبهذا الاهتمام وتلك المراعاة تتهيأ نفوسهم لسماع الحق ومن ثَمَّ قبوله .

(١) ابن حجر ، **فتح الباري** ١ / ١٧٨ ، ١٧٩ . والحديث متفق عليه في البخاري كتاب الإيمان باب الخمس من الإيمان برقم (٥٣) و مسلم في كتاب الإيمان باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله برقم (٢٤)

obeikandl.com

المبحث الثاني : قبول النفوس للحق

إن من حكم التدرج أن تتقبل النفوس للحق وتتهيأ، خاصة بعد بيان الحق لهم وتوضيحه، والنفوس المستمعة أصناف ، منها المعرض الممتنع ، ومنها من سمع و لم يفقه المعنى ، ومنها من فقه و لم يقبل ، ومنها من سمع سماع فقه وقبول ، وهذا الأخير هم الذين تتهيأ نفوسهم للقبول ، وقد ذكرهم الله بقوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾(سورة المائدة ، الآية : ٨٣)

وبشرهم وأثنى عليهم بقوله سبحانه:﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ (سورة الزمر : الآية : ١٧ – ١٨)

وبشرهم صلى الله عليه وسلم وأثنى عليهم بقوله : « نضّر الله امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه» [(١)] والحديث رواه أبو داود و ذكره ابن حباه في صحيحه .

هذا الصنف المستمع سماع فقه وقبول ، هم الذين تدرج الشارع في دعوتهم ، فكانت التشريعات الإلهية والتوجيهات النبوية تتدرج في تهيئة نفوسهم للقبول شيئًا فشيئًا

تصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هذا التدرج فتقول : « إنما نزل أول ما نزل منه – أي القرآن – سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل: لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبدًا . . . . » الحديث [(٢)] .

لا شك أن الحكمة في هذا التدرج الحكيم تهيئة النفوس للقبول ، وإلى ذلك يشير ابن حجر رحمه الله في قوله : " . . . فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ، ولهذا

---

(١)أخرجه أبو داود في **سنن أبي داود** كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم برقم (**٣٦٦٠**) ٣ /٣٢٢ ، صحيح ابن حبان (٦٨٠) ترتيب الإحسان واللفظ لأبي داود والحديث صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في **صحيح البخاري** كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن ط١ (٤٩٩٣) ٦ / ١٨٥.

قالت : « ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندعها » وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف "[1] .

ويفهم من هذا أن عدم التدرج لا يؤدي إلى القبول بل يؤدي إلى النفرة غالبا ، وقد أراد الله تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع ألا يشرع أمرًا شاقًّا على النفوس كان تشريعه له على سبيل التدرج ، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة على الذين اعتادوا غير ذلك، وبالتالي فلا تتهيأ نفوسهم لقبول ذلك التشريع ، وهذا مضمون حديث عائشة السابق

وقد بين ابن حجر ذلك بقوله : " وكذلك تعلّم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلا، حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط .. . "[2].

ذلك أن ترك التشديد على من قرب إسلامه في الابتداء، والتلطف في الزجر عن المعاصي يهيئ النفوس للقبول [3].

هذا ما كان يفعله صلى الله عليه وسلم مع من كان يدعوهم للإسلام ، وقد شهد بهذا أحد الصحابة الكرام وهو معاوية بن الحكم السلمي إذ يقول رضي الله عنه : « . . فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه ، فوالله ما كهرني [4] » ولا ضربني ، ولا شتمني قال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[5] .

وفي هذا بيان ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عظيم الخلق الذي شهد الله تعالى له به ، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمته ، وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه

---

(١) ابن حجر ، **فتح الباري** ط١ ١٠ / ٤٨ .

(٢) ابن حجر ، **فتح الباري** ط١ (١ / ٢٢٠)

(٣) المرجع السابق ١ / ٢٢٠ .

(٤)الكَهْرُ: القَهْرُ ، وعُبُوسُ الْوَجْهِ.لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٥٤)

(٥)أخرجه مسلم في **صحيح مسلم** ، ط١كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة حديث رقم (٥٣٧) ١ / ٣٨١ .

obeikandl.com

صلى الله عليه وسلم في الرفق بالجاهل ، وحسن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه"

والنفوس التي سمعت و لم تقبل كان صلى الله عليه وسلم يهيئها للقبول بشيء مما تحبه النفوس كالعطاء أو غيره ، يدل على ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه : " أن النبي صلى الله عليه وسلم غزا غزوة الفتح ، ثم خرج بمن معه من المسلمين فاقتتلوا بحنين ، فنصر الله دينه والمسلمين ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ صفوان بن أمية مائة من الغنم ، ثم مائة ثم مائة ، قال صفوان : « والله لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ فما زال يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ»[1] .

فصفوان رضي الله عنه ممن سمع كثيرا و لم يقبل ، ولكن حينما أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم هذا العطاء كان سببا في قبوله وتغير مشاعره نحو الرسول صلى الله عليه وسلم ونحو الإسلام، يدل على ذلك قول أنس رضي الله عنه : « إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها » [2] .

والنفوس بالتدرج تتأقلم وتتعود الخير شيئا فشيئًا ، وانما النفوس إذا تطبعت على شيء اعتادت عليه .

والنفس إن عوّدتَها حب الهوى تهوى ** والخير إن ألزمت النفس تلتزم [3]

---

(١)أخرجه مسلم في **صحيح مسلم** كتاب الفضائل ، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فقال لا ، وكثرة عطائه ط١ برقم (٥٣٧) ١ / ٣٨١ .

(٢) المرجع السابق برقم (٢٤١٢) ٤ / ١٨٠٦ .

(٣)من نظم الباحث من بحر البسيط .

obeikandi.com

المبحث الثالث: ترسيخ الإسلام في النفوس

إن قبول النفوس للحق واتعاظها بالمواعظ يؤدي لا شك إلى رسوخها في الحق وثباتها عليه، يدل على ذلك قوله عز وجل : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (سورة النساء، الآية : ٦٦) .

ذكر الفخر الرازي في هذا التثبيت ثلاثة أوجه :

١ – أن ذلك أقرب إلى ثباتهم عليه واستمرارهم ؛ لأن الطاعة تدعو إلى أمثالها.

٢ – أن يكون أثبت وأبقى لأنه حق ، والحق ثابت باق والباطل زائل .

٣ – أن الإنسان يطلب أولا تحصيل الخير فإذا حصّله يطلب أن يصير ذلك الحاصل ثابتًا باقيًا[1] .

وتظهر لنا حكمة التدرج في ترسيخ هذا الدين في النفوس في الوجه الثالث من هذا القول حيث البدء بطلب الخير ثم طلب بقائه وثباته .

وإنما كان العمل وإتيان الأمور الموعوظ بها في الدين يزيد العامل قوة وثباتًا ؛ لأن الأعمال هي التي تطبع الأخلاق والملكات في نفس العامل ، وتبدد المخاوف والأوهام من نفسه، ولا يكون ذلك إلا بالتدرج ، ذلك أن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها ، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات بل تكون عاقبته غالبا طلب الازدياد بخلاف ضده ، وهذا ما نراه في سيرة أصحاب رسول الله ﷺ من تسابق في الخيرات، لنيل أعالي الدرجات .

هذا الثبات على الطاعات هو الذي جعل الصحابة يبادرن إلى الخيرات ويسارعون إلى النبي ﷺ إذا خالفوا تلك الأوامر ليكفروا عن خطاياهم ، ولو أدى ذلك إلى اهراق دمائهم أو قطع أيديهم ، روى البخاري من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري : « أن

---

(١) الفخر الرازي ، **مفاتيح الغيب** ، ط٣ (١٠ / ١٦٨) .

رجلًا من أسلم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه أنه قد زنى ، فشهد على نفسه أربع شهادات ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجم . . » [1].

فانظر كيف أدّى به هذا الثبات إلى الإصرار على طلب التطهير بإقامة الحد عليه ، و لم يرجع عن إقراره مع إمكان الرجوع عن ذلك ، ومما يدل على أن التدرج يؤدي بصاحبه إلى الازدياد ما رواه أصحاب السنن عن عمر رضي الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال عمر: « اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في البقرة ، فدعي عمر فقرئت عليه فقال عمر : اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت الآية الكريمة التي في النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ (سورة النساء: ٤٢)

فدعي فقرئت عليه فقال : اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرئت عليه ، فلما بلغ : ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا » [2].

وانتهت مع هذه الآية مرحلة التدرج في تحريم الخمر ، حتى رسخ الإيمان في النفوس، وتشربت الإيمان وحب الله سبحانه وتعالى ، والحكيم سبحانه أعلم بأحوال عباده .

---

(١)أخرجه البخاري في **صحيح البخاري** ، كتاب الحدود ، باب رجم المحصن ط١ برقم (٦٣١٦) ٢١ / ٨٤ .

(٢)أخرجه النسائي في **سنن النسائي** ، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر ط ٢ برقم (٥٥٤٠) ٨ / ٢٨٦.

obeikandl.com